دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام

تأليف
مصطفى فوزي بن عبد اللطيف غزال

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

دار طيبة
الرياض - البطحاء - عمارات الراجحي
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ (المقدمة) ـ

الحمد لله القائل في كتابه العزيز: «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» ـ البقرة ١٥٩ ـ

والصلاة والسلام على رسول الله القائل: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» ـ رواه أحمد والأربعة والحاكم ـ أما بعد:

قبل البدء بعرض الكتاب لا بد لي من وقفة قليلة، أبين فيها سبب اختياري هذا الموضوع.

أذكر أنني عندما كنت في السنة الأولى من المعهد العالي للدعوة الإسلامية دعيت مع الطلبة إلى محاضرة عامة في كلية الشريعة يلقيها فضيلة الدكتور محمود الطحان وكانت بعنوان «من للسنة النبوية اليوم؟».

وبعد الإنتهاء من المحاضرة قام فضيلة الدكتور خليل ملا خاطر ليعلق على محاضرة الدكتور الطحان فبينّ أن السنّة اليوم تتعرض لمحنة خطيرة كما ذكر الدكتور الطحان ويرجع سببها إلى وجود علماء من جلدتنا ويتزيون بزي العلماء ومع ذلك فهم أشد الناس وطأة على السنّة من المستشرقين الكافرين وأخذ يسوق بعض الأسماء إلى أن تعرض إلى ذكر جمال الدين الأفغاني فقال: «وأما جمال الدين الأفغاني فعليه إشارة إستفهام طولها بطولي».

وقد كنت أحسب أن جمال الدين مصلح «عظيم» لما كنت أسمع من الناس، ولما كنت أقرأ. فلفت نظري هذا الذي أشار إليه الدكتور خليل ملا خاطر كما أنني لم أجد من الدكتور الطحان إعتراضاً على كلامه. عند ذلك قلت لا بد من دراسة هذا الرجل عن كثب لسبر أغوار دعوته التي كال لها المداحون كيلاً.

وأذكر أنني بعد يوم أو يومين من إختياري هذا الموضوع لقيت فضيلة الشيخ السيد محمد ندا أستاذ الحديث في كلية أصول الدين فسألته عن رأيه في جمال الدين الأفغاني وأنني إخترته موضوعاً لبحثي فقال لي بالحرف الواحد: «هذا الرجل الذي أرسل إلينا ليهدم الخلافة الإسلامية». فاستغربت منه هذا الكلام وقلت: ألهذا الحد وصل جمال الدين؟ وبالطبع حصل هذا الإستغراب قبل الدخول في بحث الرجل.

وحتى تلك اللحظة لم أكن أعرف شيئاً عن جمال الدين إلا ما كنت أسمع من التمجيد والتعظيم به ووضعه في مقدمة المصلحين في القرن التاسع عشر الميلادي.

هذا وإني لم أجد كبير مشقة في بحث هذا الموضوع لتوفر مراجعه، ولكن الملاحظ أن معظم المترجمين والمقومين لدعوته، كانوا ينظرون إليه من خلال أقواله في الصحف والمجلات، ومن خلال ما كتب عنه الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وكانوا يأخذون ما طاب ولذ، ويتركون ما خفي واستتر، فجاءت ترجمتهم له خاطئة وذلك لأن اعتمادهم على هذه المصادر دون غيرها أوقعهم في هذه الورطة. وهناك صنف من المترجمين وافق هواهم هوى جمال الدين فراحوا يأخذون منه الحبة ويجعلونها قبة، وينمون الصغير حتى يصبح كبيراً، ولذا تاه كثير من الناس في هذا الخضم، وأصبح من العسير إقناع الكثيرين أن جمال الدين الأفغاني يعمل وفق مخطط هدام، وأنه يأتمر بأوامر أعداء الإسلام، لذا كان هذا البحث عسيراً من هذه الناحية وشاقاً في إقناع الآخرين، ولكنني قررت قول الحق وإظهاره ودحض الباطل وإحباطه عملاً بقوله تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون).

وكذا فإني لم أجد كتاباً واحداً أختص بتقويم دعوة جمال الدين الأفغاني من أول حياته إلى آخرها، وإنما كنت أجد في كتاب فكرة أو نصاً تذكر حقيقة من حقائق دعوته فكنت آخذها وأضعها في مكانها، فعلى سبيل المثال وجدت في كتب الدكتور محمد محمد حسين نصوصاً وتساؤلات وشكوكاً حول دعوة جمال الدين الأفغاني في كتب له تبحث في الشعر والنثر والأدب عامة ككتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» أو تبحث في الغزو الفكري المعادي للفكر الإسلامي ككتاب «الإسلام والحضارة الغربية».

وبعض النصوص وجدتها متناثرة في مذكرات بعض العظماء والمفكرين كمذكرات السلطان عبدالحميد ومذكرات محمد كرد علي وخاطرات جمال الدين الأفغاني ومذكرات المستر بلنت وغير ذلك.

وبعض النصوص كنت آخذها من مؤلفات تلاميذه وأتباعه، حيث يذكرون حقائق عن جمال الدين الأفغاني وهي مطاعن عليه، ولكنهم يذكرونها مضطرين لئلا يقعوا في تكذيب المكذبين، أو إنتقاد المنتقدين، لأن تلك الأمور ظاهرة ظهوراً واضحاً لا يمكن إخفاؤها، وهم يحاولون إضفاء التعليلات والمسوغات على تلك المطاعن، حتى تظهر للبسطاء انها حسنة لا يلام فاعلها، كما حصل في تعليل دخوله في الماسونية مثلاً.

ومع ذلك فقد خفي كثير من الأمور في سيرته كشفتها فيما بعد أوراقه التي خلفها في صندوقه السري الذي كان يصحبه أين توجه، ولا تمسه يد إلا يَدُه، وبعد وفاته فتح الصندوق وأخرجت الأوراق وصورت ونشرت على الملأ وهي بخط يده، وقد كشفت كثيراً من الحقائق التي لم تكن بالحسبان، ولو كان معاصروه أحياء لغيروا وجهة نظرهم فيه ولغير المترجمون له كثيراً من تعليلاتهم ومسوغاتهم. وحتى هذه اللحظة لا زلت أقول: هناك أمور كثيرة لم تكشف بعد غامضة جداً منها: ما هو دوره في هدم الخلافة؟ وما هي مهمته الأصلية التي خرج من ايران لأجلها؟

وما هي الأعمال التي قام بها خلال أربع سنوات قضاها في روسيا؟.

وقد كشفت بعضها في رسالتي هذه وأجبت عن هذه الأسئلة بما تيسر وأرجو أن يجيء الله تعالى بمن يكشف ما بقي مستوراً حتى اليوم.

ومن العجائب أنني كنت أقع في بحثي هذا على أدلة ونصوص تساق إلي سوقاً بقدرة الله القادر، مما يدل على أن هذا البحث فيه عناية إلهية وتوفيق رباني. وهكذا كنت أجد توفيقاً في كتابة موضوعي هذا كلما تعسرت الأمور، حتى جئت إلى نهاية البحث.

ولكن عليّ أن أبين أن هناك كثيراً من الكتب فيها ما يتعلق بدعوة جمال الدين الأفغاني، وقد عجزت عن الوصول إليها وتركتها لأني أخذت معظم ما فيها أو على الأقل ما أحتاج إليه من كتب أخرى تأتي على تلك الأمور.

فأخذتها ونسبتها إلى المكان الذي حصلت عليه مع الإشارة إلى مصدرها الأصلي الذي لم أعثر عليه مثل ذلك: سيد جمال الدين المعروف بالأفغاني لمؤلفيه «أصغر مهدوي»، و«ايرج افشار» وهو عبارة عن صور لأوراق جمال الدين الأفغاني من الرسائل والوثائق التي كان يحتفظ بها، وكان يضعها في صندوق خاص، لا يعرف أحد محتواه إلا هو، ولما مات أخذ الصندوق وبقي طي الكتمان إلى أن نشرته جامعة طهران بعد مدة طويلة من وفاته. وقد كشف هذا الكتاب أموراً كثيرة كانت خافية على الناس، وأحدث هزة عنيفة في سيرته.

وقد وجدت بغيتي من هذا الكتاب في عدة كتب منها مذكرات السلطان عبد الحميد، ولمحات إجتماعية في تاريخ العراق الحديث، ورسالة ماجستير لأحد طلاب كلية أصول الدين.

وفي الختام أتوجه بالشكر إلى الله تعالى الذي وفقني وسهل لي مهمتي وأعانني وصبرني كما أشكر الدكتور محمود الطحان المشرف على رسالتي لما قدم لي من نصائح وإرشادات فجزاه الله عنا كل خير، كما أشكر كل من مد لي يد العون لإنجاح هذه الرسالة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ـ ترجمة جمال الدين الافغاني ـ

اول ما ابدأ به في الكلام على دعوة جمال الدين الافغاني سرد حياته من منشئه الى وفاته، حسب ما وردت في كتب مترجميه، وخاصة منهم تلاميذه الذين لازموه وتاثروا بدعوته.

ومعظم ما كتبت من ترجمته ماخوذ من كتاب «الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني» مع ذكر بعض الخلافات التي احجم عن ذكرها او تغاضى عنها.

مولده: اختلف المترجمون في مكان ولادته ونشأته الاولى، فبعضهم يقول: انه ولد في افغانستان في قرية اسعد آباد التابعة لكنر من اعمال كابل العاصمة.

ويقول آخرون: انه ولد في ايران في قرية اسد آباد التابعة لهمذان.

والجميع متفقون على ان ولادته كانت عام ١٢٥٤ هـ الموافق لسنة ١٨٣٨ م.

وسبب هذا الخلاف يرجع الى الغموض الذي يكتنف نشأته الاولى، فليست هناك وثائق صادرة من جهات رسمية يذكر فيها تاريخ ميلاده ومكانه، كما هو معروف اليوم.

وجميع من قالوا بافغانيته يرجعون الى تصريحات جمال الدين، فهو

يقول: «لقد جمعت ما تفرق من الفكر، ولمت شعث التصور، ونظرت الى الشرق واهله، فاستوقفني الافغان وهي اول ارض لمس جسمي ترابها...»

اما القائلون بان اصله ايراني، فعندهم ادلة كثيرة، يرجع بعضها الى اقوال ايرانيين عرفوا ولادته واقرباءه، وبعضها يرجع الى مشاهدات لآثار باقية تتصل بمولده او باصوله وفروعه.. وسنأتي على تفصيل هذا الخلاف عند الكلام على دعوته.

وقد حاول بعض الكتاب فض الخلاف، فأوجد قولا ثالثا يجمع بين القولين. فقالوا بانه فارسي الاصل افغاني المنشأ، وبهذا القول اخذ الشيخ مصطفى عبد الرازق احد تلاميذ الشيخ محمد عبده، وبمثله قال الشيخ عبد القادر المغربي احد تلاميذ الشيخ جمال الدين الافغاني.

هذا بالنسبة لمولده، اما نسبه فقد حصل الخلاف فيه ايضا فمنهم من يقول: بانه من الاشراف ، وينتهي نسبه الى الحسين بن علي رضي الله عنه، مارا باحد ائمة الحديث، وهو السيد علي الترمذي.

ولكن هذا النسب رده فريق آخر، وعلى رأسهم شيخ الاسلام ابو الهدى الصيادي. وسنأتي على تفصيل القول في ذلك عند البحث في دعوته.

إسمه الصريح محمد جمال الدين بن صفدر، وقد وقع خلاف في اسم ابيه فمنهم من يقول ان اسم ابيه (صفدر) كما ذكرنا، ومنهم من يقول: «ان اسم ابيه (صفتر) ولدى التحقيق تبين ان الثاني مصحف، وذلك لان جميع من ترجم له ذكروا ان اباه ايراني الاصل، ولا يعرف في ايران اسم (صفتر) وانما المعروف انه (صفدر) ومعناه مفرق الصفوف، فكلمة (صف) عربية، وكلمة (در) فارسية، ومعناها بالعربية مفرق الصفوف، وهو كناية عن الشجاعة والاقدام في الحرب.

وقد كانت هذه صفة علي بن ابي طالب الذي كان يفرق الجموع في هجماته على اعدائه.

نشأته: اما عن نشأته فيقولون بانه نشأ في منزل والده، واشرف والده على تعليمه حتى السنة العاشرة، فحفظ القرآن، ودرس العربية ، وظهر ولوعه بالمناقشة، وبرزت هوايته في حب الاسفار والرحلات، ثم انتقل الى مدرسة قزوين التي كان والده يدرس فيها، وفي تلك الفترة ظهرت منه اهتمامات بدراسة العلوم وخاصة النجوم، ثم انتقل به ابوه الى طهران وعمره ١٢ سنة وهناك ظهرت نباهته وذكاؤه عندما جالس اكبر علمائها الذي عرف جرأته ومقدرته العلمية ثم انه امر اباه بان يشتري له عباءة وعمامة ليكون في عداد العلماء حيث كان هذا سمة اهل العلم.

ثم رحل الى النجف مع والده فمكث فيها اربع سنوات درس فيها التفسير والحديث والفلسفة والمنطق وعلم الكلام والاصول والرياضة والطب والتشريح والهيئة وعلم النجوم، وانهى دراسته في النجف وعمره ١٦ سنة تقريبا، وقد ظهر لاول مرة في حياته حسد الحساد له فنصحه الشيخ مرتضى شيخ تلك المدرسة بمغادرة النجف فذهب الى الهند وتنقل في مدنها وتعرف على علمائها ثم قصد مكة المكرمة للحج وعمره ١٩ سنة ثم عاد ادراجه الى النجف فكربلاء فأسد آباد مسقط رأسه في ايران. ثم الى طهران حيث فتن به شيخ الطريقة الذهبية فترك طريقته ولحق به فذهب الى خراسان، ثم ذهب الى افغانستان وتعرف على اميرها دوست محمد خان والف اول كتاب له باللغة العربية وهو (تتمة البيان في تاريخ الافغان) ودخل السياسة ووقف جمال الدين مع الامير محمد اعظم خان ضد امير البلاد دوست محمد خان وكان له من العمر ٢٣ سنة فعينه رئيسا للوزراء فلعب دورا بارزا في تلك الصراعات التي لا زالت دائرة بين الامراء للوصول الى كرسي الحكم ولكن الغلبة كانت للامير شير علي خان حيث نجح في احتلال كابل عاصمة الدولة فرحل الامير محمد اعظم خان الى ايران وبقي جمال الدين في كابل محاطا بالحراسة والاقامة الجبرية، ثم انه طلب السفر الى الحجاز للتخلص من هذا القيد فسمح له بمغادرة افغانستان فذهب الى الهند وهناك فرضت السلطة البريطانية عليه قيودا مشددة في تنقله ثم انها حملته الى السويس على سفنها فدخل